

أجراً المفاهيم في الكتابة الأكاديمية بين الضرورة والمحاذير

The operationalism of concepts in academic writing between necessity and cautions

سعيدة لونيس¹ *

¹ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر).

ملخص: تكتسي الدراسة الحالية أهميتها من خلال محاولتها الكشف عن مواطن القوة والضعف الكامنة وراء اللجوء إلى أجراً المفاهيم، هذه الأخيرة التي أصبحت تشكل إحدى الطقوس التي لا مناص منها في الكتابة الأكاديمية. حيث أنها تساهم في توضيح معنى المفاهيم توضيحاً دقيقاً، إلا أن اللجوء إلى هذا الإجراء يشوبه بعض القصور، نظراً لمحدوديته في ضبط المفاهيم في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الأجرأة؛ المفاهيم؛ الكتابة الأكاديمية.

Abstract:

The current study is important by trying to detect the strengths and weaknesses underlying recourse to the operationalism of concepts, which have become an inevitable ritual in academic writing. It contributes to accurate clarification of the meaning of concepts, but the recourse to this procedure is somewhat deficient, because of it limited to adjusting concepts in the field of human and social sciences.

Keywords: Operationalism; Concepts; Academic writing.

*Corresponding author, e-mail: lounis_saida@yahoo.com

مقدمة:

مما لا يدع مجالاً للشك أن البحث العلمي يشكل العمود الفقري للعلوم في مختلف تخصصاتها، كما أنه لا يمكن تصوّر وجود معرفة حقيقية مبنية على قواعد متينة، تنهض بها الأمم والمجتمعات وتثري المسيرة العلمية في شتى المجالات دون الارتكاز على منهجية علمية رصينة تُبنى على أسس البحث العلمي. ولتحقيق جودة هذا الأخير، يستوجب على الباحثين الالتزام بالدقة في الكتابة الأكاديمية التي تحتل مكانة هامة في البحث العلمي لا تقل أهمية بأي حال من الأحوال عن منهجية هذا البحث، إذ أن الكتابة بأسلوبها المتميز كأسلوب أكاديمي إنما تعمل في الواقع على ترجمة ما تم القيام به في البحث بمنهجيته الصحيحة على هيئة مُنتج نهائي ينبغي أن تتوفر فيه معايير الجودة.

ومن بين متطلبات الدقة في الكتابة الأكاديمية أن يشرع الباحث في وضع تعريفات واضحة محدّدة لكل مفهوم أو مصطلح يستخدمه العلماء في كتاباتهم وفي دراساتهم العلمية، مهما بدت هذه المفاهيم أو تلك المصطلحات بسيطة أو واضحة. والمغزى من ذلك تجنّب أي لبس في معنى هذه المصطلحات وتحديد ما تشير إليه بدقة، وبهذا يتأكدون من أنهم جميعاً يتحدثون عن نفس الشيء، لا عن أشياء مختلفة بالرغم من اختلاف مشاربهم النظرية التي ينتمون إليها.

لكن بالرجوع إلى ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانية، نجد أنّ الباحث يصطدم للوهلة الأولى بمسألة "المعنى المُوحد أو المتفق عليه" للمفهوم، والذي يتأثر لا محالة باتجاه الباحث وثقافته وكذا انتمائه. في حين نجد أنّ المفاهيم في مجال العلوم الطبيعية لا وطن لها، ولغتها موحدة لدى عموم الباحثين في هذا الحقل العلمي أو ذاك، بينما في العلوم الاجتماعية هو تجريد لها، فلا يتحدّد معناه إلا في السياق الذي يُدرج فيه، من هنا برزت مسألة تحديد عناصره البنائية، من خلال تحويل مضمونه من مضمون نظري بحث إلى مضمون إجرائي، هذا الأخير الذي تتجلى أحد صوره في تحديد الملاحظات التي ينطبق عليها المفهوم، وكذا وصف سلسلة من الإجراءات التي اتبعت للحصول على هذه الملاحظات وعلى أدوات قياسها. وبهذا يكون التعريف الإجرائي قد ضمن الموضوعية في الدراسة، من خلال عدم تدخل ميول الباحث وأهوائه في البحث، ذلك أنّ تحديد الإجراءات اللازمة لأحداث الظاهرة، وتحديد الوسائل اللازمة لقياسها، تكون موضعاً للاتفاق العلمي بين الباحثين والمشتغلين في الميدان.

وعلى هذا الأساس، يتوجب على المشتغلين في هذا الميدان أن ينصّب اهتمامهم على ضرورة مراجعة مفهوماتهم المستخدمة في كتاباتهم الأكاديمية مع الاستعانة بالمبدأ الإجرائي الذي نادى به برديمان، وذلك من أجل تخليص علم النفس من شوائب الذاتية التي تعلقت به منذ انفصاله عن أحضان الفلسفة، وكذا الابتعاد عن التفكير الميتافيزيقي الذي ورثه عنها.

ولكن بالمقابل نجد أنّ هذا التعريف الإجرائي لم يسلم بدوره من حملة الانتقادات والاعتراضات الشديدة التي وُجّهت إليه، وكان من جملة ما لقي من نقدٍ ما أشار إليه الطيب وآخرون (2005) من حيث أنّه يضيق نطاق الظاهرة المراد دراستها، وأنّ الإفراط في استخدامه يُنسي الباحث العودة إلى المفاهيم والتكوينات الأساسية اللازمة للنظريات المختلفة، كذلك فإنّ الإفراط في استخدامه قد يؤدي إلى تحديد المشكلة تحديداً ضيقاً للغاية، بحيث تُصبح مشكلة البحث تافهة عديمة الجدوى. الأمر الذي يستوجب ضرورة توخي الحذر في استخدام هذه التعريفات بأسلوب مبالغ فيه لتجنّب الوقوع في الأخطاء التي قد تؤثر في جودة البحث العلمي ومصداقيته.

وتأسيساً لما تقدّم عرضه، تحاول هذه الدراسة الوقوف على مواطن القوّة والضعف الكامنة وراء اللجوء إلى التعريفات الإجرائية للمفاهيم، والتي أضحت تُشكّل في الآونة الأخيرة إحدى الطقوس الأساسية التي لا مناص منها وإجراءً بالغ الشيوع في الكتابة الأكاديمية خصوصاً في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

2- الكتابة الأكاديمية الماهية والخصائص:

في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي شهدت مؤسسات التعليم العالي في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تطوراً معرفياً وتقدماً علمياً وتقنياً في جميع المجالات، ونتيجةً لذلك بدأ المهتمون في المجال التعليمي بتطوير نمط جديد للكتابة، اصطُح على تسميته بالكتابة الأكاديمية Academic Writing (الفقيه ودخيخ، د ت، ص ص 173-174).

ويشير مفهوم الكتابة الأكاديمية بأنّها ذلك النمط من الكتابة الذي يحمل النمط العلمي في تخصّص ما، يستثار فيه الكاتب من خلال طرح موضوع ما، بغرض المراجعة أو من خلال سؤال أو مجموعة من الأسئلة يتطلب البحث الإجابة عنها، وعرض ذلك بصورة منطقية مُدعمًا كتابته بالأدلة والحُجج المنطقية (فريس، 2001، كما ورد في عتروس، 2019، ص 201).

كما يتحدّد أيضا مفهوم الكتابة الأكاديمية بأنها أسلوب ونسق لغوي، له أدواته وألفاظه وتراكيبه وبنائه، ودلالاته ومعانيه وصياغته وخصائصه، تُكتب به البحوث والدراسات والرسائل والأطروحات والتقارير والملخصات العلمية، مما يجعل هذا النوع من الكتابة متميّزة عن غيرها من أنواع الكتابة الأخرى (Swales & Feak, 2005).

وهكذا فإنّ الكتابة الأكاديمية هي الكتابة التي يُطلب من كلّ الطلبة والأساتذة الجامعيين والباحثين إنجازها، ولهذه الكتابة طابعٌ أساسيٌّ مميّز، يجعلها تتسمّ بمجموعة من الخصائص التي تميّزها عن أنواع الكتابة الأخرى، والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية (الشهراني، د ت):

- الموضوعيّة (Objectivity): الكتابة الأكاديمية لغة موضوعية وليست عاطفية ولا شخصية.
- المسؤولية (Responsibility): الكاتب المسؤول عن النّص والبحث الذي يكتبه، سواء تعامل معه بمسؤولية وعلمية وموضوعية، أو كان دون ذلك.
- الوضوح (Explicitness): الكتابة الأكاديمية صريحة وسياق النّص وتسلسل الأفكار والعلاقات واضحة ومنطقية.
- الدقة (Precision): اللّغة الأكاديمية لغة تستخدم التّراث العلمي وأدبيات الموضوع والحقول المعرفية والمعرفة المتراكمة والتواريخ والأرقام والحقائق، ولذلك فإنّها يجب أن تكون دقيقة وصادقة وكاملة في عرض النظريات والحقائق والإحصائيات والمواقف والاقتباسات.
- العقلانية (Rationality): لغة البحث العلمي لغة تقوم على المنطق العقلاني وإثبات الحُجة، وتقديم البراهين والإقناع، ولا مجال فيها للمبالغات وأيّ ضعف منطقي أو غموض أو خروج عن سياق البحث ومنهجيته، يؤدي إلى الانتقال من البحث والباحث.
- الرسمية (Formality): الكتابة الأكاديمية تتطلب أسلوبًا لغويًا لا يستخدم اللّهجات ولا الكلمات العامية ولا "الأنا" الصّريحة ولا التّفخيم للذّات باستعمال "أنا" الجماعة، ولا التّعبير الشّخصي المباشر من الكاتب.
- القوّة (Strength): قوّة النّص الأكاديمي وفصاحته تدلّ على عمق التفكير وقوّة اللّغة ورجاحة الفكر والثقافة الواسعة والشاملة، وهذا يجعل النّص والبحث قويًا كرسالة بين مرسله الكاتب ومتلقيه القارئ.

- **السّلامة اللغوية (Faultlessness):** لغة الباحث العلمي الجاد، لغة خالية من الأخطاء اللغوية، من حيث اختيار الألفاظ في سياقات البحث، بالدلالات والمعاني التي تقوي النّص، ومن حيث سلامة العناوين وتركيب الجمل والاستخدام الصّحيح للقواعد النحوية والإملائية وبناء الفقرات.
- **الحذر (Hedging):** اللّغة الأكاديمية لغة حذرة لا تستخدم كلمات ولا عبارات قاطعة ولا تأكيدية ولا أدعائية، فيما لا يمكن تأكيده أو توثيقه أو القطع فيه.
- **عدم الانحياز (Non-Biased):** يعتبر الانحياز لأسباب ذاتية أو شخصية أو حضارية أو قيمية، بدون أساس عقلائي موضوعي تحليلي مُؤسس لموقف الكاتب ورأيه، أمراً مرفوضاً وغير مقبول في الكتابة الأكاديمية (ص 5-7).

3- تعريف المفهوم:

إنّ المفهوم Concept الذي هو أساس لغة التّواصل الإنساني ووسيلة الإنسان للتعبير عن أفكار وحالات وأوضاع محددة، يكتسي أهميّة فُصوى في عملية البحث العلمي. فهو يعدّ من أساسياته ومطلباً ضرورياً في وضع إطار مرجعي يستخدمه الباحث في التّعامل مع مشكلة بحثه. فالمفهوم عبارة عن جملة تحتوي على مجموعة من الكلمات التي توضح معنى شيء معيّن، ويعرف أيضاً بأنّه فكرة مجردة وتركيب منطقي يتم التوصل إليه من خلال الملاحظة المنظمة والخبرات المتراكمة، ويتسمّ في أغلب الأحوال بأنّه مقبول ومتفق عليه من قبل عدد كبير من العلماء والباحثين (الجمال، 1999، ص 43).

كما عرّف قاموس ويبستر Webster المفهوم بأنّه لفظٌ عام يُعبّر عن مجموعة متجانسة من الأشياء، وهو عبارة عن تجريد للواقع يسمح لنا بأن يعبر عن هذا الواقع من خلاله. وفي الموسوعة الفلسفية العربية فالمفهوم أو الأفهوم - حيث يعتقد واضعوها أنّ لفظ أفهوم أصحّ لغوياً من لفظ مفهوم - هو توحيد المتنوّع في فكرة واحدة، وهو تعريف منسوب إلى كانط (الموسوعة الفلسفية العربية، 1986، ص 770). بينما يتحدّد المفهوم عند عبد اللا وشربي (1999) على أنّه لفظٌ له معنى معيّن، ويشير إلى مدلول واقعي. فعلى سبيل المثال مفهوم المكانة الاجتماعية يتكوّن من لفظ هو المكانة الاجتماعية، وله معنى معيّن هو الوضع الذي يشغله الشّخص بالمقارنة بالآخرين، ويشير إلى مدلول هو أنّ الأفراد تختلف مواقعهم ودرجاتهم (عبد الرحمن، 2013، ص 45).

كما يشير المفهوم إلى مجموعة من الخصائص المحددة والمرتبطة بواقع معين، يتم تجريدتها والتعرف عليها انطلاقاً من تصوّر ذهني بعيداً عن الالتباس والغموض، فهو بذاك يمثل بناءً فكرياً تجريدياً ورمزياً (فكار، 2012، ص 34). فهو وحدة معرفية مستقلة لا ترتبط بالضرورة بلغة من اللغات أو بلهجة من اللهجات، وإنما ينتمي مباشرة إلى المستوى الفكري (المعرفي) (الربيعي، 2016، ص 40).

وفي هذا السياق تُجدر الإشارة إلى أنّ هناك من يخلط بين المفهوم والمصطلح، إذ أنّ هناك اختلاف بينهما، والذي يتجلى في كون أنّ "المفهوم يركّز على الصورة الذهنية، أما المصطلح فيركّز على الدلالة اللفظية للمفهوم، كما أنّ المفهوم أسبق من المصطلح فلكلّ مفهوم مصطلح وليس العكس، وينبغي التأكيد على أنّ المفهوم ليس هو المصطلح، إنّما هو مضمون هذه الكلمة ودلالة هذا المصطلح في ذهن المتعلّم، ولهذا يعتبر التعريف بالكلمة أو المصطلح هو الدلالة اللفظية للمفهوم. ويمكن استنتاج العلاقة بين المفهوم والمصطلح، في أنّ المفهوم هو وحدة معرفية، في حين أنّ المصطلح تسمية لهذه الوحدة" (الربيعي، 2016، ص 40).

4- كيفية تحديد المفهوم:

عند تحديد وتفسير المفاهيم التي يستعملها الباحث في بحثه، عليه توخي الإيجاز دون إخلال بالمعنى، وأن يكون المعنى أو التفسير معبراً بوضوح ودقة عن المفهوم، وبعبارة أخرى، يجب أن يكون التعريف جامعاً في محتواه، واضحاً لا لغو فيه ولا سلب في تعبيره.

ويذكر عبد اللاوشربي (1999) أنّ هناك ثلاث طرق لتحديد أيّ مفهوم هي: الاستناد إلى التعريفات السابقة للمفهوم، والاستناد إلى الخصائص البنائية والوظيفية للمفهوم، والاستناد إلى التعريفات الإجرائية للمفهوم. وهي كالآتي:

- **الاستناد إلى التعريفات السابقة للمفهوم:** وفي هذه الطريقة يتم حصر التعريفات السابقة للمفهوم، ثم تحدد الجوانب المشتركة بين كلّ هذه التعريفات لاتخاذها أساساً لتعريف المفهوم بصورة مبدئية، ثم عرض التعريف المبدئي للمفهوم للنقد ووضعه في الصورة النهائية. ويجب أن يتصفّ التعريف النهائي للمفهوم بثلاث سمات هي: الإيجاز في العبارة، والقطع في الدلالة والمعنى، ووحدة التفكير.

- **الاستناد إلى الخصائص البنائية والوظيفية للمفهوم:** يوجد نوعان من المكونات لأيّ مفهوم هما: مكونات بنائية وهي الوحدات أو الأشياء التي يتكوّن منها المفهوم. والمكونات الوظيفية، وهي

الوظائف التي يؤديها كلٌّ مكوّن بنائي من مكوّنات المفهوم. وعلى ذلك يمكن تحديد المفهوم بتحليله إلى مكوّناته البنائية أو الوظيفية أو كليهما معًا.

- **الاستناد إلى التعريفات الإجرائية:** التعريف الإجرائي هو تحديد ما يجب أن يقوم به الباحث لقياس المفهوم أو ملاحظته وتسجيله (عبد الرحمن، 2013، ص 49). وتستخدم هذه الطريقة عند عدم وجود مصدر آخر مناسب لتوضيح معنى المفهوم، فيقوم الباحث بالاستعانة بالتعريفات الإجرائية السابقة لتحديد معنى المفهوم.

5- أجرأة المفاهيم التأسيس والماهية:

تعدّ مسألة أجرأة المفاهيم أو ما يُعرف أكاديميًا بالتعريف الإجرائي للمفاهيم بمثابة همزة وصل بين ماهو تصوّري، تكويني وماهو إجرائي، عملي في البحث العلمي، فهو الذي يُغطّي الفجوة القائمة بين المستوى النظري والفكري والمستوى الامبريقي الذي يتم ملاحظته.

والأصل في ظهور فكرة أجرأة المفاهيم تعود إلى أبحاث الفيزيائي الأمريكي "ب. و. بريدجمان" (F.W.Bridgman) الذي وضعه عام 1927، حيث أشار إلى أنّ "المعنى العام" لكلّ مفهوم علمي يجب أن يكون محددًا بالإشارة إلى عملية محدّدة واضحة، فالمعنى المتعلّق بالمفهوم يتحدّد من التعريفات الإجرائية، بحيث يكون المفهوم مرادفًا بالتطابق لمجموعة العمليات القياسية، فتعريف الذكاء يجب أن يكون في ضوء اختبار يجري طبقًا لمواصفات وإجابات الأفراد الذين يتم اختبارهم لتمثيل نتائج الاختبار (عبد المؤمن، 2008، ص 104).

وقد استعار العالم الاجتماعي "لندبرغ" في سياق تطورات الوضعانية هذا المفهوم، حيث أكد أنّ تعريف أيّ مفهوم في الظواهر الاجتماعية، وانتشاله من حالة تعدّده، وتصفيته ممّا علق به من الذاتية، وإرسائه على الموضوعية العلمية، يجب أن ينطلق من العمليات القابلة للتحقق منها. تلك هي الفكرة التي أسست لأجرأة المفاهيم، بل أسست لعقيدة إنتاج كل علم لمفاهيمه الإجرائية.

والمقصود بالأجرأة تفكيك وتحليل المركبات من المفاهيم إلى أجزائها الأولية، وإنزالها من عالم المجردات ومستوى التعميمات، إلى عالم المحسوسات والخصوصيات (فرحاتي، 2012، ص ص 75-76).

ويشير مفهوم "الإجراءات" إلى سلسلة من التعليمات التي تشرح العمليات التي يجب أن يقوم بها الباحث ليظهر وجود أو درجة وجود حدث امبريقي معيّن مُعبّر عنه بإحدى المفاهيم (بدر، 1994،

ص39). فهو بكل بساطة يتجسد في عملية تحويل التعريف النظري أو التكويني إلى مؤشرات واقعية يمكن قياسها في الواقع أو ما يمكن مشاهدتها في الواقع.

وتُفضّل سلتز وزملاؤها إطلاق اسم التعريف العامل **Working Definition** بدلاً من اسم التعريف الإجرائي، حيث ترى أنّ الباحث يواجه مشكلة أساسية عند إجراء دراسته وهي تحديد متغيراتها، حتى يمكن له التعبير الكمي عن المتغير... عليه أن يبتكر عمليات تمكنه من الحصول على مادة يستطيع أن يتقبلها برضاً كمؤشر لمفهومه، وبهذا تُمكن له الوصول إلى تعريف عاملي لمفاهيمه أو تعريف إجرائي (عبد الكريم، د. ت، ص51).

يتأسس التعريف الإجرائي على جمع مجموعة من خصائص المفهوم القابلة للملاحظة، فهو ينزع عن المفهوم طبيعته المجردة عن طريق تحليل أبعاده وتفتيتها إلى مؤشرات إجرائية يسهل قياسها. ويتم ذلك على النحو الآتي:

أولاً: تحديد الأبعاد Dimensions: وتشكّل هذه العملية بداية التعريف الإجرائي، يتعلق إمبريقياً بمحاولة تشظية المفهوم إلى أبعاده الأساسية. وذلك بفحص معانيه ودلالاته العميقة والتي تشير إلى جوانب عينية من الواقع المقابل لهذا المفهوم أو ما يُسمّى بمكونات المفهوم. أو هي تلك الأوصاف البسيطة (قليلة التجريد) والتي تشكّل البنية العامة للمفهوم المجرد، وهي بذلك تشكّل مرحلة وسيطة وضرورية بين المستوى التجريدي والمستوى الإجرائي.

ثانياً: استخراج المؤشرات Indicators: تشكّل المؤشرات الحلقة الأخيرة في نظام التحليل المفاهيمي، وهي بذلك تعبر عن تلك البيانات أو الصفات الإجرائية (القابلة للملاحظة) والتي يتشبع بها كلّ بُعد من أبعاد المفهوم (بن جخدل، 2019، ص ص 213-215). فهي باختصار مجموع العمليات والدلالات الإمبريقية التي يسعى الباحث لرصدها بدقة لتصبح قابلة للملاحظة والقياس. وعند القيام بصياغة أو ترجمة المفهوم إلى مؤشرات، يتوجب مراعاة جملة من الشّروط، منها:

- التأكد من تغطية المؤشرات التي طوّرها الباحث لكافة الجوانب الرئيسية المتعلقة بالمفهوم.
- التأكد من صدق المؤشرات، بحيث تقيس المؤشرات فعلاً المفهوم من جوانبه المختلفة.
- التأكد من ثبات المؤشرات، إذ عند استخدام أيّ باحث للمؤشرات ذاتها فيما بعد، فإنّه يحصل على النتائج نفسها تقريباً (خشيم مصطفى عبد الله، 1996، ص ص 106-107).

وعادة ما تأخذ الصياغة الإجرائية للمفاهيم شكلين، حددهما (Kerlinger, 1992) على النحو الآتي:

- التعريف الإجرائي المُقاس:

وفيه يصف الكيفية التي سوف يُقاس بها متغير ما، أيّ يقوم بوصف كيفية تحويل المفهوم إلى قيم كمية يمكن قياسها. فعلى سبيل المثال، إنّ التّحصيل يمكن تعريفه على أنّه الدّرجة التي يحصل عليها التلميذ على اختبار مقنّن أو على اختبار من إعداد المعلم.

- التّعريف الإجرائي التجريبي:

وفيه يحدّد بوضوح تفاصيل أو إجراءات المعالجات التي سيقوم بها الباحث لمتغير معيّن، فالتعزيز يمكن تعريفه إجرائياً عن طريق إعطاء تفاصيل عن الكيفية التي سيتم بها تعزيز أو عدم تعزيز المفحوصين عند قيامهم بسلوكيات معينة، فقد يكون هناك مديح للطالب على سلوكيات معينة ولوم على سلوكيات أخرى، وتجاهل عند سلوكه بطريقة أخرى، كلّ هذه الإجراءات يجب أن تحدّد بوضوح ، وأن يحدّد توقيت استخدامها (عطيفة، 2002، ص64). فهو لا يكتفي بكيفية القياس، ولكنّه يحدّد أيضاً طريقة التّعامل خلال التجريب.

6- شروط التّعريف الإجرائي:

- أن لا يكون دائرياً أي يجب أن لا يتضمن التّعريف مفهوماً يحتاج إلى تعريف مثل تعريف سلوك حلّ المشكلات بأنّه نوع من الذكاء.
- أن لا تعرّف الظاهرة بنفسها لأنّه في هذه الحالة يكون التّعريف تحصيل حاصل مثل تعريف الذكاء بأنّه القدرة العقلية العامة.
- من الأفضل أن لا يكون التّعريف بالسلب، لأنّ التّعريف السالب لا يحدّد الإجراءات أو الأقيسة اللّازمة لقياس الظاهرة. فتعريف الذكاء بأنّه ما لا يعتبر من مكونات القدرة الابتكارية أو أحد أبعادها، لا يحدّد الذكاء تحديداً إجرائياً (الطيب وآخرون، 2005، ص102).
- لا بد أن يكون صادقاً ومرتبباً تمام الارتباط بالبحث، بحيث يكون صالحاً للاستخدام في جمع البيانات التي تساعدك على معالجة أسئلة البحث.
- أن يكون مرتبباً كلية بسياق البحث، ومصمماً خصيصاً للمشروع البحثي، بحيث أنّه قد يكون عديم الجدوى بالنسبة لأيّ مشروعات بحثية أخرى (ماتيز وروس، 2016، ص 154).

7- ضرورة تحديد المفاهيم إجرائياً:

إنّ التعريفات الإجرائية ضرورية للبحث، لأنّها تمكّن الباحثين من قياس المفاهيم والتكوّينات المجردة، وتسمح للعلماء بالانتقال من المستوى الفرضي النظري إلى مستوى الملاحظة التي يقوم عليها العلم. ويستطيع الباحثون والعلماء عن طريق استخدام التعريفات الإجرائية الاستمرار في عملية الاستقصاء التي قد تكون غير ممكنة بدون هذه التعريفات (أبو علام، 2007، ص52).

كما تأتي أهمية التعريفات الإجرائية من كثرة المدلولات المحتملة للمصطلح أو المفهوم الواحد نتيجة لعدم اتفاق العلماء على مدلول واحد، وكذلك نتيجة لاختلاف القرائن الدالة على معنى دون غيره. وعلاوة على ذلك، إذا كان التعريف النظري للمفهوم قائماً على الدلالات المفاهيمية التطهيرية المجردة للمفهوم، من خلال تبيان دلالاته بناءً على مفاهيم أخرى تحتاج بدورها إلى تعريف، وأنّ تعريف مفهوم بمفاهيم أخرى يتطلب أن تكون هذه المفاهيم الأخيرة أقل عموميةً وتعقيداً وأكثر وضوحاً وتحديداً من المفهوم الذي يُراد تعريفه. أما التعريف الإجرائي فيتخلص نسبياً من هذا الإشكال باللجوء إلى الإجراءات الامبريقية المتخذة لقياس الظاهرة المدروسة التي لها علاقة بالمفهوم (تيغزة، 2002). وبهذا يمكن تلخيص أهمية التعريف الإجرائي للمفاهيم في النقاط الآتية:

- توحيد فهم المصطلح بين الباحث والقارئ.
- تفسير بعض الإجراءات في ضوء التعريف، فهو الإطار المرجعي للتفسير.
- بناء الأدوات واشتقاق أبعادها.
- وضع حدود للدراسة أو البحث.
- بيان الاختلاف بين ما هو مألوف عن المفاهيم وبين ما يقصده الباحث (أبو زائدة، 2018، ص190).

8- محاذير التعريف الإجرائي للمفاهيم:

رغم الأهمية الجوهرية الكامنة وراء اللجوء إلى التعريفات الإجرائية، إلا أنّ المعنى الذي نحصل عليه من هذه التعريفات معنى محدود للتكوّينات. فلا يوجد تعريف إجرائي قادر على إعطاء تعريف كامل للمتغيرات، إذ أنّ الغرض من إجراء المفاهيم وضع حدود معينة لتلك المفاهيم، للتأكد من أنّ جميع المهتمين بالمشكلة يفهمون المصطلح أو المفهوم بالطريقة التي يقصد بها الباحث استخدامه.

ولا يمكن اعتبار التعريف الإجرائي مناسباً أو كافياً إلا إذا كانت الإجراءات المستخدمة في التعريف تكفي لجمع بيانات تعتبر مؤشرات مقبولة للمفهوم الذي تمثله هذه البيانات، وغالباً ما يكون تحقيق هذا الغرض أمراً متعلقاً برأي الباحث أكثر منه أمراً واقعياً (Ary et al, 1996).

ونظراً للقصور الذي يعتري التعريفات الإجرائية، جعل بردجمان يعيد النظر في آرائه الأولى متبرئاً منها، وذلك من خلال مقال نشره في مجلة Scientific Monthly عام 1954 حيث صرح قائلاً: "إني أمقت كلمة الإجرائية، إذ تبدو منطوية على عقيدة جامدة" (سويف، 2000، ص 41). ولعل ما يدعم هذا الرأي، أن هناك عاملاً يعترضان عملية الانتقال من المستوى المفاهيمي إلى المستوى الإجرائي، هما:

يتجلى العامل الأول في ما يُعرف بـ "درجة التوافق أو التطابق" Congruence بين التعريفات المفاهيمية والتعريفات الإجرائية. والتي تعني مدى تمثيل المؤشرات للمفهوم الذي يفترض أن تحدده واقعياً، بمعنى هل المؤشرات تعكس المفهوم أم تعكسه بشكل جزئي، أم تخلطه بمفهوم آخر، أم يا ترى يعكس مفهوماً آخر مختلفاً تماماً؟ (ميرزا وآخرون، 2016) فمثلاً إذا عُرِف الذكاء مفاهيمياً أنه "القدرة على التفكير بشكل تجريدي"، وعُرِف إجرائياً بـ "الدرجة التي يتحصل عليها في اختبار الذكاء"، فما هي درجة التوافق بين التعريفين؟ هل تمثل العلامة التي يحصل عليها فرد معين في اختبار الذكاء كل ما تضمنه التعريف المفاهيمي للذكاء؟ (ناشمياز وناشمياز، 2004، ص 47).

وعلاوة على ذلك، إن الاعتماد على هذا الطابع الامبريقي في تحديد المفاهيم، يجعل الباحث يقع في ما يُعرف بـ "خطأ الأجراءة" (Fallacy of Operationnality)، من خلال تقديم تعريفات إجرائية للمفاهيم في ضوء الأداة المخصصة لقياسها، وهذا ما ينجّر عنه أن يبدو كل تعريف "حالة متفردة وتطبعه بصفة الخصوصية حتى وإن تعلق الأمر بتعريف نفس المفهوم"، الأمر الذي يستلزم مراعاة استخراج مؤشرات الصدق في بناء وتصميم أدوات القياس. ولكن هذه المؤشرات بدورها توفر لنا قرائن تقريبية نسبية فقط، وليس دليلاً قاطعاً عليها (تيغزة، 2002).

بينما ينبثق العامل الثاني من عدم إمكانية تعريف بعض المفاهيم إجرائياً، بمعنى أنه لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر على سبيل المثال "الأنا"، "عقدة أوديب"، "المادية الجدلية"، "ما وراء الشعور"... جميعها مفاهيم لم تحظ بتعاريف إجرائية مرضية حتى الآن (ناشمياز

وناشمياز، 2004، ص 47). وقد يساعد التدرج في سلّم التجريد على ذلك، ومع هذا تبقى بعض المفاهيم صعبة التّحديد واقعيًا.

ونظرًا للإفراط في استخدام هذه التعريفات النمطيّة التي تعجّ بها البحوث الأكاديميّة، فقد بات لزامًا علينا تصحيح هذه النظرة من خلال ما اقترحه "سويّف" بضرورة التخلّي عن المبدأ الذي ينصّ على "أنّ المفهوم مرادف لمجموعة الإجراءات المتعلقة به"، وكذلك لابد من رفض القضية المناظرة التي أقرّها بعض علماء النفس "أنّ المقصود بالذكاء هو ما نقيسه بمقاييس الذكاء"، مع هذا الرّفص ينبغي أن يكون واضحًا أنّ مفهوم الذكاء (وكذا مفاهيم سيكولوجية أخرى مماثلة) أوسع أو أشمل من إجراءات قياسه، وإلا فكيف نفهم الإجراءات الدّائبة في السبيل إلى تحسين المقاييس المتوفرة لدينا؟ إذ لابد أن يكون في الذّهن بواقي من المفهوم لم تتوصل مقاييسنا إلى الإمساك بها. هذه البواقي ينبغي الحفاظ على توضيحها أمام ناظرينا، لأنّها هي مربط الفرس فيما يتعلّق باستمرار تقدّم العلم. هذا صحيح لا بالنسبة لمفهوم الذكاء فحسب، ولكن بالنسبة لمعظم المفاهيم التي نتعامل بها في علمنا (سويّف، 2000، ص ص 42-43).

9- الخلاصة:

مما لا شك فيه أنّ خطّة أيّ بحث علمي تتطلب من الباحث أن يحدّد مفاهيمه بكلّ دقة، من أجل إزالة كل لبسٍ وإبهامٍ قد يثير سوء الفهم لدى المستمع أو المطلّع، وذلك نظرًا لأنّ المفهوم الواحد في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية قد يحمل أكثر من معنى، وبما أنّه كذلك، فإنّ الغموض يعترّيه من كلّ جانب، مما يجعل ضرورة تحديده خطوة جوهرية يجب الالتزام بها من قبل الباحث. الأمر الذي يدفعه إلى عملية الضبط الإجرائي للمفاهيم لغرض تبيان مقاصده ورصد أبعاده الدّالة على معالمه العلميّة.

ومن الأهميّة بمكان أن نشير إلى مدى ضرورة الالتزام بتحديد التّعريف الإجرائي الذي يتمثّل في إسناد معنى إلى مفهوم أو مفهوم بنائي، وذلك بتحديد الإجراءات التي يتوجب القيام بها من أجل قياس أو تفعيل المفهوم. فهو يُعدّ بذلك تعريفًا حيويًا وجوهريًا في البحث العلمي، لأنّه يتطلب جمع البيانات بلغة أحداث قابلة للملاحظة. ولكن في المقابل، فإنّه لا يمنح إلا معاني محدودة للأبنيّة التي تمثّلها، فلا يوجد تعريف إجرائي يعبر عن المتغيّر موضع الاهتمام تعبيرًا كاملاً وشاملاً لكلّ أبعاده.

بمعنى أنّ هذه التعريفات تُبيّن طريقة القياس لا ماهية الشّيء الذي يقيسه، فهو بذلك يمثل طريقة عقيمة في تعريف المفاهيم البحثية التي لا تضيف شيئاً جديداً إلى تحديد المفهوم أو المصطلح المراد إبراز مقاصده ومعانيه العلمية، فالمفهوم إذن لا يُقيّم فقط من منطلق قابليّته للمشاهدة، بل أيضاً من منطلق فحواه النظري، ذلك أنّ إهمال شروط البناء النظري للمفهوم هو في الواقع إهمال للصّيغة العلمية له.

المراجع:

1. أبو زيدة حاتم، (2018). *مناهج البحث العلمي*، ط2.
2. أبو علام رجاء محمود، (2007). *مناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية*. دار النشر للجامعات.
3. بدر أحمد، (1994). *أصول البحث العلمي ومناهجه*. المكتبة الأكاديمية.
4. بن جخدل سعد الحاج، (2019). *الأطر التمهيديّة للبحوث العلمية من الشغف إلى النظرية*. عمان: دار البداية ناشرون وموزعون.
5. تيغزة امحمد. (2002). "بين المنظور المشرقي الخليجي والمنظور المغاربي في مجالات البحث، والقياس، والتقويم: تموقع أم استقطاب؟". الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية. بحوث اللقاء السنوي العاشر: القياس والتقويم التربوي والنفسي. الرياض: مطابع الحميضي: 19-61.
6. الجمال راسم محمد، (1999). *مقدمة في مناهج البحث في الدراسات الإعلامية*. القاهرة: مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح.
7. خشيم مصطفى عبد الله أبو القاسم، (1996). *مناهج وأساليب البحث السياسي*. طرابلس: الهيئة القومية للبحث العلمي.
8. الربيعي حسن كريم ماجد، (2016). *البحث المعرفي: جدواه، مفاهيمه، مناهجه، تطبيقاته*، ط1. بيروت: دار الولاء لصناعة النشر.
9. سويف مصطفى، (2000). *علم النفس: فلسفته وحاضره ومستقبله ككيان اجتماعي*. الدار المصرية اللبنانية.

10. الشهراني سعد بن علي، (د ت). الكتابة الأكاديمية: خصائصها ومتطلباتها اللغوية. بحث منشور في الشبكة العنكبوتية.
11. الطيب محمد والدريني حسين وبدران شبل والبللاوي حسن ونجيب كمال، (2005). **مناهج البحث في العلوم التربوية والنفسية**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
12. عبد الرحمن طارق عطية، (2013). دليل تصميم وتنفيذ البحوث في العلوم الاجتماعية: **منهج تطبيقي لبناء المهارات البحثية**. الرياض.
13. عبد الكريم، محمد الغريب، (د.ت). **البحث العلمي التصميم والمنهج والإجراءات**، ط2. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
14. عبد المؤمن علي معمر. (2008). **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية: الأساسيات والتقنيات والأساليب**. ط1. ليبيا: جامعة 7 أكتوبر.
15. عتروس نبيل، (2019). مقومات الكتابة الأكاديمية الناقدة في البحث العلمي لدى طلبة الجامعة. **مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع**، 2(1)، ص ص. 196-216.
16. عطيفة حمدي أبو الفتوح، (2002). **منهجية البحث العلمي وتطبيقاتها في الدراسات التربوية والنفسية**، ط1. مصر: دار النشر للجامعات.
17. فرحاتي، العربي بلقاسم، (2012). **البحث الجامعي بين التحرير والتصميم والتقييم**، ط1. الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.
18. الفقيه أحمد حسن ودخيخ صالح أحمد، (د ت). مهارات الكتابة الأكاديمية اللازمة لطلبة مرحلة البكالوريوس في جامعة الباحة. **مجلة العلوم التربوية والنفسية**، 12(4)، ص ص. 170-232.
19. فكار عثمان، (2012). المفهوم في البحث الاجتماعي: من التعريف المؤقت إلى التعريف الإجرائي. **مجلة آفاق لعلم الاجتماع**، 1 (2)، ص ص. 33-40.
20. ماتيزور بوب وروس ليز، (2016). **الدليل العملي لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية**، ط1. ترجمة وتقديم وتعليق محمد الجوهري. القاهرة: دار الكتب المصرية.
21. **الموسوعة الفلسفية العربية**، (1986). معهد الإنماء العربي. بيروت.

22. ميرزا غريب وفخر الدين يوسف وسلامة يوسف، (2016). **مقدمة في مناهج البحث العلمي الاجتماعي**، ط1. مراجعة ماهر اختيار وحازم نهار وعزام أمين. معهد الجمهورية لمنهجيات البحث العلمي.
23. ناشمياز شافا فرانكفورت وناشمياز دافيد، (2004). **طرائق البحث في العلوم الاجتماعية**. ترجمة ليلي الطويل، ط1. بترا للنشر والتوزيع.
24. Ary,D,Jacols.&Razavieh,A, (1996). **Introduction to research in education** (Fifth Edition). Newyork: Holt,Rinehartand Winston, Inc.
25. Kerlinger, F.N,(1992).**Foundations of behavioral research**.(3rd ed).Orlando, Fl: Harcourt Brace College Publishers.
- 6.Swales, J & Feak,C, (2005). Academic writing for graduate students 2 tesl-ej **The electronic journal for english as a second language**, 8(4).

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

لونيس سعيدة، (2022)، أجرأة المفاهيم في الكتابة الأكاديمية بين الضرورة والمحاذير ، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية ،المجلد 15 (العدد 02)، الجزائر : جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص8-22.